الاستشراق والاستعمار

بعد أن قدمنا لمحة موجزة عن نشأة الاستشراق وصلته بمؤسسات التبشير ورجال الدين والحروب الصليبية، لا يسعنا إلا أن نلقي بعض الضوء على العلاقة الحميمة بين الاستشراق والاستعمار في العصر الحديث.

لم تنس أوروبا هزيمتها المنكرة في الحروب الصليبية، ورغم مرور القرون العديدة على أحداثها ووقائعها، حتى لاحت للغرب فرصته الذهبية في العصر الحديث، فانقض على الشرق الإسلامي المترنح - بفعل عوامل التخلف والانحطاط الثقافي والسياسي والعسكري والاقتصادي التي حاقت به وأحاطت - فوضع رقبة الشرق تحت قيده الغليظ، ومارس معه أبشع أنواع البطش، وأقسى صنوف الجبروت والطغيان والتشفي المرذول.

لم ييأس الغربيون بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية، فراحوا يدرسون هذه البلاد في كل شئونها: من عقيدة ولغة وحضارة، وعادات وتقاليد وأخلاق؛ ليتعرفوا على مواطن القوة فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها...، أي أن الاستشراق[1] قد أدى دورًا كبيرًا في التهيئة والتمهيد لاستعمار العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي.

ولما تم للغرب ما أراد، وسيطر على الشرق الإسلامي عسكريًّا، وسياسيًّا، هب الاستشراق للعمل على إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا؛ وذلك عن طريق التشكيك في فائدة ما بأيدينا

(1) أسهم كثير من المستشرقين - في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين - في تحقيق الأهداف الاستعمارية، ولا يزال بعضهم إلى اليوم يعمل في نفس الاتجاه؛ وذلك بإقرار المستشرقين بأنفسهم كما سنرى.

من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية؛ حتى نفقد الثقة بأنفسنا[1]، ونرتمي في أحضان الغرب... نستجدي منه المقاييس الخلقية والمبادئ الأيديولوجية، وبذلك يتم لهم ما يريدون في خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعًا لا تقوم لنا من بعده قائمة[2].

انظر إليهم كيف يشجعون – في بلادنا – القوميات التاريخية البائدة التي عفى عليها الزمن واندثرت منذ حمل العرب رسالة الإسلام، فتوحدت لغتهم وعقيدتهم، وثقافتهم، ومشاعرهم، وطموحاتهم وتطلعاتهم وبلادهم، وحملوا هذه الرسالة إلى العالم فأقاموا بينهم وبين شعوبه روابط إنسانية وتاريخية وثقافية، ازدادوا بها قوة، وازدادت تلك الشعوب بها رفعة هداية.

إنهم ما برحوا منذ نصف قرن أو يزيد يحاولون إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين، والآشورية والمندائية والحرنائية في العراق، والبربرية في الشمال الإفريقي، وهكذا ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة، وليوقفوا قوة الاندفاع التحررية عن عملها في قوتنا وتحررنا وسيادتنا على أرضنا وثرواتنا، وعودتنا من جديد إلى قيادة ركب الحضارة، والتقائنا مع إخواننا في العقيدة والمثل العليا والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة[3].

وقد كان للسيطرة الغربية على الشرق الإسلامي دورها في تعزيز موقف الاستشراق، بل قد تواكبت مرحلة التقدم الضخم– في مؤسسات الاستشراق وفي

(1) لقد صرح كثير من المستشرقين بهذه الحقائق..... انظر:

Dr. E. Said Orientalism

(2) يتفق الباحثون على ذلك... راجع ما كتبه د. إدوارد سعيد (الاستشراق) ص52، 73 ومواضع أخرى كثيرة؛ والدكتور زقزوق ص43، 48؛ والدكتور حسن حنفي في مقدمته لعلم الاستغراب والدكتور عرفان عبد الحميد 14 – 15، والدكتور قاسم السامرائي ص31 وما بعدها، والدكتور البهي ص30 والدكتور عبد الحليم محمود، ود. مصطفى السباعي.

(3) الدكتور مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص18.

مضمونه- مع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق[1]. ولأن الاستعمار التوسعي قد أفاد من الاستشراق فوائد جمة، عمل على تغذيته ورفع مكانته؛ ذلك أن الهدف الاستعماري لا ينفك عن الهدف الاستشراقي - غالبًا - في العصر الحديث.

نجح المستعمرون في توظيف المؤسسة الاستشراقية الغربية في خدمة أغراضهم وتحقيق أهدافهم، وتمكين سلطانهم في بلاد المسلمين... وقد نشأ رباط رسمي وثيق بين هاتين المؤسستين: مؤسسة الاستعمار، ومؤسسة الاستشراق. وقد خاض في هذا كثير من المستشرقين الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون عملهم «وسيلة لإذلال المسلمين، وإضعاف شأن الإسلام وقيمه» وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالخجل والعار؛ وفي ذلك يقول المستشرق الألماني المعاصر (استفان فيلد Stephan Wild) «... والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة[2]. ولا ننسى - في هذا الصدد - مواقف كبار المستشرقين وارتباط عملهم، وتسخير علومهم الاستشراقية في خدمة لالاستعمار، ومنهم على سبيل المثال: المستشرق (كارل هينريش بيكر Karl Heinrich Becker) توفى 1933 مؤسس (مجلة الإسلام) الألمانية الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقيا. فقد حصل الرايخ الألماني في عام 1855 - 1886م على مستعمرات في إفريقيا تضم مناطق بعض سكانها من المسلمين، وظلت تلك المناطق تحت السيادة الألمانية حتى عام 1918م. وقد أدى ذلك إلى تأسيس معهد اللغات الشرقية في برلين عام 1887 وهو معهد كانت مهمته

(1) نقلًا عن الدكتور زقزوق في كتابه: (الإسلام في الفكر الغربي) ص60، وانظر كذلك: الفصل الأول Dr.A. Hourani. Islam in European Thought،

(2) رودنسون: (مقال في تراث الإسلام) لشاخت وبوزوورث، ترجمة د. زهير السمهوري، ح1، ص83، الكويت 1978، إدوارد سعيد ص225، د. زقزوق ص43.

تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية الحالية وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها[1].

هذا عن نشأة معهد اللغات الشرقية في برلين لخدمة الاستعمار، وقد ذكرنا من قبل إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعات أكسفورد وباريس وسالمنكة وروما لخدمة الأغراض التبشيرية[2].

وننقل عن المستشرق الإنجليزي (آرثر جفري آربري A. J. Arbarry) ما جاء في المذكرة التي رفعها جمع من العلماء سنة 1639 إلى المسئولين في جامعة كمبردج، والتي طلبوا فيها إنشاء كرسي للدراسات العربية بالجامعة: «يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة، وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وتوسيع حدود الكنيسة – إذا شاء الله – في الوقت المناسب، ونشر هدى الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة[3].

وهكذا تمتزج أهداف الاستشراق مع التبشير من جهة، ومع الاستعمار من جهة أخرى.

يقول المستشرق الألماني (أولريش هارمان Ulrich Harman): «كانت الدراسات (الاستشراقية) الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام 1919م أقل براءة وصفاء نية؛ فقد كان كارل هينريش بيكر – وهو من كبار مستشرقينا – منغمسًا في النشاطات السياسية، حتى أنه أصبح في عام 1914م شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في إفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين»[4].

أما عن اعتماد (نابليون بونابرت) قائد الغزوة الفرنسية لمصر (1798 – 1801)

---

(1) انظر كتاب المستشرق رودي بارت ص31 – 32.

(2) Southern, R.W. P. 4

(3) A. J. Arbarry, The Cambridge School for Arabic, 1948 P 8.

(4) مقال عن الاستشراق، مجلة (الباحث) ص145، فبراير، 1983.

obeikandl.com

على جهود المستشرقين واصطحابه لهم، وأخذه بمشورتهم وتوجيههم، واستخدام معرفتهم وخبرتهم بالإسلام والمسلمين في الأغراض الاستعمارية لغرض السيطرة والتوسع فأمر معروف، يؤكد هذه العلاقة الآثمة بين المستشرق والمستعمر.

وإن المنشورات التي أذاعها نابليون على المصريين، وقد ملأها بالدجل والخداع والتغرير بالمصريين – قد صيغت من واقع خبرة المستشرقين ومعارفهم، وقد اعترف نابليون بذلك – في فخر وزهو – اعترافات لا تنقصها الصراحة، ولا تفتقر إلى الوضوح[1].

اعتمد نابليون على كثير من المستشرقين؛ من بينهم مونج ورجاله وفنتورا ومارسيل وسولكو فسكي والبارون دتوت وغيرهم.. ومما هو معروف عن نابليون أنه حاول استغلال (عقيدة القضاء والقدر) للتغرير بالمصريين وإيهامهم أنه إنما جاء تنفيذًا لقدر إلهي مسلط على المماليك – حكام مصر آنئذ – وأن الله قدر إنهاء دولة المماليك على يديه...، أكد هذه الفكرة الخبيثة في بيان العفو الذي أصدره عقب ثورة القاهرة الأولى سنة 1798م، حيث جاء فيه: «أيها العلماء والأشراف، أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره.. ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى. والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه...، وأن الله قدر في الأزل أني أجيئ من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به. ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه..»[2].

ويؤكد هذا المعنى محذرًا ومبينًا أنه سيأتي يوم يظهر فيه للناس «أن كل ما فعلته وحكمت بعه فهو حكم إلهي لا يرد، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده، ما يمنعه عن

(1) Albert Hourani : Islam In European Thought . Cambridge Univ. Press 1991 P. 15.

(2) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار طبعة القاهرة 1322هـ، وانظر: (بونابرت في مصر) تأليف كرستوفر هيرولد، الترجمة العربية لفؤاد أندراوس، والدكتور ألبرت حوراني: الإسلام في الفكر الأوروبي ص15، وقارن الدكتور عبد الحميد مدكور ص155 – 158

قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي». وقال نابليون في أحد منشوراته: «وأؤكد لكم، معاشر المصريين، أن الفرنسيين يعبدون الله أكثر من المماليك، كما أنهم يجلون الرسول، والقرآن الكريم،.. وأن الفرنسيين مسلمون خُلّص»[1].

هكذا فقد أراد نابليون بعقيدة القضاء والقدر – وهي عقيدة حق وأصل من أصول الإيمان– باطلًا وزورًا، وإنما زين له ذلك بعض المستشرقين الذين سخروا علومهم في خدمته.

كما عمل المستشرق النمساوي Alfrid Von Kramer المتوفى 1889م مستشارًا للامبراطورية النمساوية وخدمها مدة ثلاثين سنة في مصر ولبنان ومناطق أخرى[2].

وكذلك فقد كلفت الحكومة الروسية المستشرق (بارتولد Bartold) مؤسس مجلة (عالم الإسلام) – المتوفى سنة 1930 – الروسية بالقيام ببحوث عن الإسلام والمسلمين تخدم مصالح السياسة الروسية في آسيا الوسطى.

أما المستشرق العتيد عالم الإسلاميات الهولندي (كرستيان سنوك هورجرونيه) المتوفى سنة 1936م فقد وضع نفسه وعلومه الاستشراقية في خدمة الاستعمار الغربي... وفي سبيل الوصول إلى الأهداف الاستعمارية تسلل إلى (مكة المكرمة) متجسسًا وقضى بها وقتًا غير قليل. والثابت تاريخيًّا أنه قد أظهر الإسلام احتيالًا، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ثم في إندونيسيا (التي تحتلها هولندا) طيلة حياته..، ومما لا شك فيه أنه كان بارعًا في تمثيل الدور على كثير من المسلمين الذين منحوه الحب فخانهم. مكث هذا المستشرق قرابة ستة أشهر في مكة، متخذًا اسم (عبد الغفار)، وصار يختلف إلى مجالس العلماء وشيوخ التعليم في مكة المكرمة، فوطَّد علاقاته معهم، ومع علماء جاوه وسومطره وأجى؛ ممن كانوا يختلفون إلى مكة... ويتوقع صديقنا الدكتور قاسم السامرائي أن يكون الشيخ المفتي

(1) ألبرت حوراني: ص36.

(2) المرجع السابق.

أحمد بن زيني دحلان قد أجازه وزوده برسالة توصية لعلماء (أجى) لتتم بها خطة سنوك في إندونيسيا وخاصة في إقليم (أجى) الذي كان ثائرًا على الحكم الهولندي[1].

يرى المستشرق (فاندر مولن) أنه حتى لو اعترفنا أن «سنوك هورجرونيه» كان يكن الاحترام للإسلام فإن سياسته الاستشراقية كانت تعني رفض محتوى الإسلام السياسي، وإبداله بقوانين (العادات) كما جاء في التقرير المشهور السيء السمعة الذي قدمه سنوك للحكومة الهولندية (لتبرير) الحرب الدموية التي شنتها ضد إقليم أجى الأندونيسية، والتي قادها الجنرال هوتش بإرشادات سنوك (وعلمه العظيم وأحكامه الفائقة التي استغلت للأغراض العملية) كما يقول فوخل... ولذا لقب الجنرال بأنه (سيف سنوك الضارب) لأنه أباد قرى بكاملها: برجالها ونسائها وأطفالها...، معتمدًا على خبرة سنوك.

ويؤكد (فوخل) أن هدف سنوك الحقيقي مكة نفسها: المركز الديني للعالم المحمدي. أما (فرانك شرودر) فيقول: «لقد زار المدينة المقدسة (مكة المكرمة) كثير من المغامرين المتنكرين، وبعض ذوي المعرفة، بيد أن سنوك كان بلا شك أحسنهم تجهيزًا، فقد عاش حياة مسلم تحت اسم عبد الغفار.

ولم تكن دراسة الشريعة الإسلامية عند سنوك إلا لأغراض عملية، وتعني هذه الأغراض العملية؛ توظيف العلم بالشريعة لخدمة أغراض الاستعمار والتمكين له. وقد بين سنوك ذلك عندما كتب تعريفًا لكتاب المستشرق (سخاو) سنة 1899م، فقال: «الشريعة في وضعها العملي، كان عليها أن تقدم تنازلات هائلة

(1) يقول الدكتور قاسم السامرائي (وهو خبير بمستشرقي هولاندا لأنه يعيش منذ أمد بعيد بين أظهرهم حيث يعمل في جامعة لايدن): كل من كتب عن كرستيان سنوك من مستشرقي هولاندا، كال له المديح وغرف له الثناء... يقول (دريفس): إن دراسة سنوك الرائدة للشريعة الإسلامية وما يعنيه الإسلام في حياة أتباعه جعلته واحدًا من مؤسسي علم الإسلاميات الحديث. «وقال فرانك شروردر: «لقد صار سنوك خبيرًا بالشريعة الإسلامية... وقد أخذ على عاتقه مهمة تصحيح الآراء الخاطئة» وقال فادر مولن: «إنه البطل المكافح، وأنه قدم نفسه فداءً للمسيح».

لعرف وتقاليد الناس واستبداد حكامهم. ومع هذا فقد احتفظت بتأثير واسع المدى على حياة المسلمين؛ لذلك كانت ولم تزل لنا موضوعًا مهمًّا للدراسة؛ لا لمجرد الأسباب المتعلقة بتاريخ الشريعة والحضارة والدين، ولكن لأغراض عملية؟!. وكلما ازدادت صلات أوروبا الودية مع الشرق الإسلامي، ازداد معها وقوع الأفكار الإسلامية تحت سيطرة أوروبا..، كلما أصبح الأمر مهمًّا لنا نحن الأوروبيين، كي نكون على معرفة بالحياة الفكرية ومفاهيم الإسلام وشريعته الدينية»[1].

فمعرفة الشرق الإسلامي عند سنوك – حسب تعبير إدوارد سعيد – إما أن تزيد أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تستطيع السياسة الأوروبية أن تمتد على آسيا الإسلامية[2].

وفي تقرير (أجى) غير المنشور الذي كتبه سنوك – حث الحكومة الهولندية الاستعمارية على استبعاد إقليم أجى، لأن احتلاله سوف (يزيل من الوسط الإسلامي كراهية كل شيء، غير إسلامي، ومن ثم فإن سكانه سوف يقبلون ما يملي عليهم من المفاهيم الأوروبية التي ترفع من شأنهم؛ لأن العقيدة الإسلامية تحث على كراهية الكافر لتعصبها». وفي مكان آخر يقول: إن الشريعة الإسلامية مثالية توجد في المدارس فقط، وليس لها تأثير في الحياة العامة.

وقد تقمص (سنوك) شخصية كاتب من (جاوة) وأخذ يرى المسلمين في إندونيسيا كيف ينبغي أن يكونوا.. وهذا في سلسلة مقالات أبدى فيها سنوك الوجه الاستعماري سافرًا... ومما جاء فيها: «لم ألق إلا في النادر أناسًا من أهل بلدنا أندونيسيا من كان يرى أننا جديرون بأن نتخلص من وصاية الأوروبيين التي فرضها الله علينا. وكان من خطته «ربط المستعمرات الهولاندية في إندونيسيا بروابط ثقافية بأوروبا، ومن ثم فإن هذه الروابط تسلب «كل خلاف ديني من أهميته السياسية والاجتماعية» وقصد سنوك – كما هو واضح – أن إحلال ثقافة أوروبا محل الإسلام[3]، يسهل التبعية السياسية والدينية.

(1) د. قاسم السامراني: مرجع سابق ص111، 113.

(2) A. Hourani. P. 42, E. SaJd. PP. 255 - 56

(3) د. قاسم السامراني ص109 وانظر د. زقزوق ص45، 46 إدوارد سعيد ص256.

وهذا الإنكار لدور الشريعة السياسي والثقافي والاجتماعي نراه واضح المعالم في كتابات معظم المستشرقين وفي كتابات تلاميذهم الشرقيين. ومن المعروف أن سنوك هذا كان زميلًا وصديقًا حميمًا للمستشرق اليهودي (إجناس حولدزيهر) 1850 - 1921. هذا ويؤكد المستشرق (رودي باريت) ما ذكرناه بشأن وضع المستشرقين خبرتهم وعلومهم تحت تصرف السلطات الاستعمارية الغربية، فيذكر أن سنوك هورجرونيه قد شغل عدة مناصب قيادية في السلطنة الاستعمارية الهولندية، وأوتي بذلك- فيما أوتي - فرصة معرفة العرف السائر بين المسلمين هنالك معرفة وثيقة[1].

وفي فرنسا كان زعماء المستشرقين مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال إفريقيا؛ فقد شغل المستشرق المعروف (دي ساس) منصب المستشار المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية. وعندما غزا الفرنسيون الجزائر سنة 1830 كان دي ساس هو الذي ترجم البيان الموجه إلى الشعب الجزائري وكان يستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزيري الخارجية والحربية منذ 1805م.

وإلى عهد قريب كان المستشرق الذائع الصيت (لويس ماسنيون) مستشارًا للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشئون الإسلامية..[2]. وزيادة في التضليل والخداع والتمثيل زعم أنه قد أسلم، وتسمى بـ (عبده محمد ماسنيون)، وقد كتب - فيما كتب - خطابًا إلى الشيخ محمود شكري الآلوسي عام 1932م، ومهره بهذا التوقيع[3] ويشير الدكتور حوراني إلى أهمية موقع ماسنيون بين المستشرقين قائلًا: «لقد مارس ماسنيون بأصالة أفكاره، وقوة ذهنه تأثيرًا عميقًا

(1) رودي بارت ص31 وانظر الدكتور غراب «رؤية إسلامية للاستشراق».

(2) إدوارد سعيد ص146، 221

.A. Hourani, PP. 43 - 48

(3) مجلة المورد الصادرة عن المجمع العلمي بدمشق عدد 21، 1975 ص176، عن الدكتور صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ط دار الآفاق.

على الدراسات الإسلامية في فرنسا، بل وفي تشكيل نظرة الغربيين إلى الإسلام، ولقد كان المستشرق الوحيد الذي يمثل رمزًا للاستشراق كله في وقته. ويذكر حوراني كذلك: أن هذا المستشرق الكبير كانت له في شبابه اتصالات سيئة السمعة بسلطات الاستعمار؛ مثل معظم المستشرقين في جيله:

«In his earlier years, he had bad connections,like most of his generation, with the Imperial mission of France».

ويحكي ماسنيون عن نفسه أنه قد اعتقل سنة 1908م في بغداد بتهمة التجسس ضد الدولة العثمانية، وهدد بالحكم عليه بالإعدام؛ وأنه حاول الانتحار. لكنه في أخريات حياته انتقد الاستعمار الفرنسي وسياسته الرامية إلى الجموح الدنيوي المادي... إلى الفهم.. وإلى الغزو.. وإلى الاستيلاء والتملك «Our secular rage to Understand، to Conquer، to Posses»[1].

وفي مقال للمستشرق الفرنسي وزير الخارجية (هانوتو) ت 1944م بعنوان: «قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية) يكشف فيه بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الإفريقية الإسلامية، وما تهدف إليه هذه المقترحات من إضعاف المسلمين في عقيدتهم حتى يسهل قيادهم[2]. هذا ومن المستشرقين الذين شغلوا مناصب في وزارات المستعمرات والخارجية الغربية إلى جانب دي ساس وماسنيون، جب، ونيكلسون، ومرجليوث، وجويدي، ونيللينو، وبرنارد لويس، وماكس ميلر، وروث بنيدكت وغيرهم[3].

---

(1) Dr. Albert H., Islam in European Thought, PP. 43 - 48.

وانظر المقالة المفصلة التي كتبها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (شخصيات قلقة في الإسلام) بعنوان (لويس ماسينون حياته وابحاثه) وهو من أهم ما كتب عن ماسينون بالعربية، وانظر بحث R. casper بعنوان: اتجاهات معاصرة في دراسة التصوف الإسلامي، في كتابنا عن التصوف.

(2) د. مدكور ص159 د. البهي ص30.

(3) د. زقزوق ص16.

وفي أوائل هذا القرن العشرين كان اللورد كيرزن Curzon من أشد المتحمسين في إنجلترا لفكرة إنشاء مدرسة للدراسات الشرقية باعتبارها تعد جزءًا ضروريًّا من أسس الأمبراطورية، كما أنها تعمل على الاحتفاظ بالموقع الذي نالته بريطانيا في الشرق.. وقد تحولت إلى مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والإفريقية فيما بعد.

ومعروف أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات الاستشراقية، وإلى آرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة في الشئون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية. ويذكر الدكتور إبراهيم اللبان أنه سمع أحد المستشرقين يتحدث أمامه فيذكر أن (مستر أيدن) كان قبل أن يضع قرارًا سياسيًّا في شئون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمعه منهم، هذا إلى جانب أن بعضهم كان يؤسس صلات صادقة بالبارزين من رجال الأمة العربية، ويتخذ من هذه الصلات ستارًا يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب[1].

كانت العلاقات إذًا عميقة بين المؤسسة الاستعمارية والمؤسسة الاستشراقية...، فقد كان الاستشراق بمثابة الدليل للاستعمار في ربوع العالم الإسلامي؛ بغرض فرض السيطرة الغربية عليه وإخضاعه وإذلال أهله.. وقد عمل الاستشراق- قبل فرض هذه السيطرة بالفعل- على إضفاء طابع التبرير العقلي والخلقي للسيادة الاستعمارية، ثم اتجه بعد أن تمت هذه السيطرة إلى خنق روح المقاومة في نفوس المسلمين والعمل على تشكيكهم في عقيدتهم وتراثهم، وإشعارهم بالتدني والانحطاط والافتقار؛ حتى يتمكن الاستعمار من طمس الهوية الذاتية الإسلامية، وإخضاع المسلمين نهائيًّا وكليًّا للثقافة والحضارة الغربية.

وغاية ما يقال هو أن أفكار بعض المستشرقين والمستعمرين كانت تسير في طريق واحد.. هو طريق العمل على إضعاف القيم الإسلامية، عن طريق شرح

(1) د. إبراهيم اللبان «المستشرقون والإسلام» ص18 عن الدكتور زقزوق ص47.

تعاليم الإسلام ومبادئه شرخًا يضعف في المسلم تمسكه بالإسلام، ويقوي في نفسه الشك فيه كدين، أو على الأقل كمنهج سلوكي يتفق وطبيعة الإنسان العصرية.. وهذا يكشف الروح الصليبية في دراسة الإسلام سافرة رغم محاولة التخفي تحت عباءة البحث العلمي ودعاوي خدمة التراث الإنساني المشترك، وخدمة الأهداف والغايات الإنسانية المشتركة.

إن الأفكار الاستشراقية والأهداف الاستعمارية تتلاقى وتتمازج وتنصهر معًا؛ وعلى سبيل المثال فإن فكرة إبعاد الإسلام عن التأثير في مجال العلاقات بين الأفراد فكرة استشراقية استعمارية.

– وإن فكرة توقيت الجهاد بعهد الرسول ﷺ وعهد صحابته فحسب، أو فكرة إلغائه اليوم فكرة استشراقية استعمارية.

– وفكرة أن الظروف الدولية تدعو المسلم إلى الولاء لغير المسلم، وفكرة أن الإسلام – كدين – يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه، وبتعدد مصادره، وفكرة أن الإسلام دين فردي شخصي لا يصح أن يتدخل في علاقات الناس والدول، كلها أفكار استشراقية استعمارية. وتأسيس مبدأ الإسلام في عدن زواج المسلمة بغير المسلم على فكرة العنصرية، ومبدأ الجهاد في سبيل الله على نزعة الميل إلى الاعتداء والغزو...– وأمثال ذلك هو كثير جدًّا– من صنع الاستعمار والاستشراق معًا[1].

وقد عمل الغرب على إرسال رسله من المستشرقين ليبثوا هذه الأفكار ويقنعوا بها المسلمين عن طريق التدريس المباشر في المدارس والمعاهد والجامعات التي أسست في البلاد الإسلامية، وعن طريق البحوث والدراسات والمقالات والكتب التي تنشر، والمؤتمرات التي تعقد، وفي وسائل الإعلام المختلفة.. ولقد درَّس في جماعة القاهرة في بداية نشأتها عدد من كبار المستشرقين، كان من بينهم على

(1) قارن الدكتور البهي ص52، 534، د. زقزوق ص18، إدوارد سعيد ص68، 70 والدكتور عبد الحميد مدكور ص160 – 162 والدكتور غراب: الاستشراق (رؤية إسلامية)، نشر أكسفورد.

سبيل المثال لا الحصر كل من (ماسنيون) و (بريهيه) و (نيكلسون) و (الكونت دي جلارزا) و (جون آرثر أربري) و (ليفي برفنسال) و (سانتلانا) و (اسرائيل ولفنسون) و (كارلونللينو) وغيرهم. وقد نجح بعض المستشرقين – مع وسائل أخرى – في صياغة عقول ووجدانات بعض الباحثين الذين حملوا أفكارهم وتحمسوا لها، وأشاعوها، وربوا المريدين والتلاميذ على نشرها والاستماتة في الدفاع عنها.

أعتقد أن أمر العلاقة الوثيقة بين الاستشراق والتبشير منذ النشأة الأولى، ثم بين الاستشراق والاستعمار– إبَّان الانطلاقة الكبرى في الأنشطة الاستشراقية – أضحت بينة جلية موثقة بتواتر شهادات المستشرقين أنفسهم، وباستقراء واقع الحال كما يقال. وقد شكلت هذه الدوافع الأساسية مناهجهم التي سلكوها، وأثرت في القضايا التي طرحوها، والمقدمات التي رتبوها، وأخيرًا على النتائج التي أرادوها واستخلصوها. ويسترعي إدوارد سعيد النظر إلى أن هذه العلاقة لم تنته بعد، بل كل ما هنالك أن المجال لم يعد حكرًا على المستشرقين، بل ينافسهم فيه اليوم نظم وشركات ومصالح ومؤسسات تعليمية وتبشيرية ومراكز ومعاهد ومنظمات إلخ وهي جميعًا مكرسة لتأكيد شرعية عدد من الأفكار الأساسية غير المتغيرة حول الإسلام والشرق وعلاقته بالغرب. وتسهم هذه جميعًا في تشويه صورة الشرق– والعرب خاصة– في أوروبا وأمريكا، وتظهرهم في صورة بشعة يتصفون فيها بالخيانة والسادية والمتاجرة في الرقيق، وأن العربي وغد لئيم، شهواني خبيث، عدواني إرهابي... إلخ[1].

(1) Edward Said. Orientalism. PP. 286 – 288.